# مذكراتى في نصف قرن

صاحب هذه المذكرات أحمد شفيق باشا. اقرأ الكتب بالقلم لأنى أعانيها وأعيشها ساعة القراءة وأسجل رؤيتى لتوها، حرصا على بكارة الإحساس.

وتفرض الدراسة نفسها على قراءاتى فألتزم بقراءة الكتاب من اوله ومع ترتيب الفصول ولكنى فى هذا الكتاب بدأت بقراءة القسم التاريخى السياسى منه ووقفت طويلا عند الثورة العرابية باعتبارها رواية شاهد عيان فالمؤلف من رجال السراى- حتى ولو كان منحازا فمهما تحسب النقد العلمى أن يكون شابها الهوى لقرب كاتبها من الحاكم أى الخديوى فى وقته ولكن هذا السبب نفسه عامل توثيقى بما يتيح من مصادر الأحداث وبواطنها على أن المؤلف ذكر ما للحاكم وما عليه بقدر ما تستطيع بشرية الإنسان.. على أن المؤلف لحقه غبن من السراى، يوما فقد فصل من عمله. يقول (لما اشتد العسر المالى وتقرر تنازل الأسرة الخديوية عن أملاكها، كان أول من نفذ هذا القرار هو ولى العهد توفيق باشا فتنازل عن تفانيشه وتقرر الاستغناء عن كثير من الموظفين بها وكنت ضمن الذين استغنى عنهم فى ٢١ ابريل سنة ١٨٧٩). وان كان عاد الى السراى فى آخر يونيه من العام نفسه.

نسيت عصرى وأنا اقرأ الثورة العرابية فبكيت واحسست عذابات شعبنا وقتئذ احساسا عميقا كأنى خضتها.. تجرعت غصصا كثيرة والناس الطيبون من اهلنا اصحاب هذا التراب يفنشهم الأجنبى فى طريقهم من مكان الى مكان..

من حق القارىء أن أعرض الكتاب من أوله.. وهنا يقف المؤلف وقفة عند عصر اسماعيل الذى شاهد جزءا منه. أخذ كثيرا وأعطى كثيرا.

أصلح كثيرا وخرب كثيرا.. يقول المؤلف (كان ثالث ثلاثة من ذوى الفخامة والعظمة والأبهة والإسراف: هم السلطان عبدالعزيز والامبراطور نابليون الثالث واسماعيل خديوى مصر.

ومن غريب الاتفاق ان هؤلاء العظماء الثلاثة عاشوا فى عصر واحد تقريبا. فكان بين سيرهم كثير من وجود الشبه. وكانت بينهم رابطة صداقة ومودة. ثم حكم ثلاثتهم مددا متقاربة وختم كل عهده فى ظروف متشابهة).

والمثل من مصر:

المناسبة: فتح قناة السويس

يقول المؤلف والواقع يؤيده (بقيت هذه الاحتفالات مضرب المثل فى الأبهة المقطوعة النظير بما بعث الامبراطوره اوجينى ان تبرق الى زوجها الامبراطور يوم حفلة الافتتاح تقول له: «وصلت بورسعيد بصحة جيدة. الاستقبال فخم، لم أر فى حياتى ما يماثل ذلك).

وقد أنفق اسماعيل المديون- على هذه الاحتفالات مليونا واربعمائة الف جنيه مصرى.

وليت الأمر اقتصر على الداخل بل ان اسماعيل أغدق فى الخارج وعلى من لا يعرفهم (ذوى بارو باشا الفرنسى وكان رئيس الديوان الافرنجى فى عهد اسماعيل أن (اسماعيل فى احدى زياراته لباريس سمع بجمال قصر لأحد أغنياء الباريسيين فأظهر لمحدثه رغبة فى مشاهدة القصر هياما بالفن الجميل. فلما علم صاحبه بذلك بادر بدعوة الخديوى الى مأدبة اقامها له. فكانت له فتاة جميلة أعجب بها سموه. وبعد الفراغ من تناول الطعام سأل اسماعيل صاحب القصر عما اذا كان يرغب فى بيعه وعن الثمن الذى يريده فيه.ولم يكن الرجل يود التفريط فى قصره.. ففكر فى الخلاص من هذا المأزق بأن طلب لقصره ثمنا باهظا قدره بخمسة ملايين فرنك راجيا ان يحول ذلك دون رغبة الخديوى فى الشراء ولكن خاب ظنه. فقد قبل الثمن وأمر باستدعاء كاتب العدل (المخصص لكتابة العقود) ليكتب العقد. فسأل عن اسم البائع وقيده.. ثم سأل عن اسم المشترى وعندئذ اشار اسماعيل بإصبعه الى ابنة رب الدار قائلا:

(مدموازيل....» وبذا عاد القصر لابنه صاحبه وغرم اسماعيل ثمنه الباهظ ومع هذا حفل عصره بالنوابغ فى العلوم والفنون وبعضهم كانت له شهرة علمية فى تخصصه مثل محمود باشا حمدى الفلكى الذى خطط خريطة مصر الحديثة لأول مرة وقد شهد علماء الفلك الأوربيون بنبوغه فى علمه وذكروه فى كتبهم.

أقول لو أن الأمر شورى واستطاع اعلام عصره ان يوجهوا دفة الحكم لما واجه هذه النهاية الدامية التى طوت صفحته ولكن آفة الحكم الفردى، التسلط.. ولانحتاج هنا بإنشائه مجلس نواب فالمؤلف صاحب المذكرات يروى عن والده ان هذا المجلس عند اجتماعه، دعا السكرتير الأعضاء أن يقسموا أنفسهم ثلاثة أقسام:



obeikandi.com

الأول حزب اليمين ويؤيد الحكومة

الثاني حزب اليسار وهو المعارض له

الثالث حزب الوسط وهو المعتدل

فلم يكن من أعضاء المجلس إلا أن انحازوا جميعا الى جهة اليمين قائلين وكيف نكون ضد الحكومة؟!

وأنا لم أضحك من هذه القصة.. فإن ظاهرها يخفى حقيقة مؤلمة على العكس تماما مما يبدو من سطحها.. ان النواب الذين قالوا وكيف نكون ضد الحكومة لعلهم كانوا يسخرون ولا ينافقون.. فما دامت الحكومة لن تجر انتخابا فهى صاحبة السلطة بما هى صاحب التعيين فكيف يخالفونها؟ ولعلهم أذكياء أيضا الى الحد الذى توجسوا، معه، من التقسيم الذى طرحه سكرتير الحكومة.. وتحسبوا أنه يريد أن يستدرجهم ليعرف المعارضين.

على كل حال، تثبت التجارب فى كل عصر أن الاستبداد يأكل نفسه حتى لو ذوب فى بحر المر قناطير من السكر..

ويأسى القارىء مرة أخرى على حدائق القاهرة. وندع الان حديقة الأزبكية جانبا فمن حقها أن تستأثر بوضوح كامل واقف الان عند حى شبرا الذى يكاد يختنق الان لنقرأ فى الكتاب ان شبرا كانت (بمزارعها النضرة ومناظرها الجميلة، هى المكان المطروق للتنزه والرياضة عادة. وكان يقصد اليها المرتاضون مشاه وركبانا، وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح. وأحيانا واقفة فى انتظار أصحابها ممن حضروا اليها للرياضة، مكبلة فى اللجم، صفوفا على جوانب المزارع. كذلك كانت ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة تحمل افراد العائلة الخديوية ومن يداينها من كبار السراة والأعيان، يتقدم هذه العربات قمشجية (سياس) لافتتاح الطريق واتماما لمظاهر الأبهة. وكان يرى بين المتنزهين فخرى باشا ممتطيا جواده الجميل وأمامه (السايس) كما كان يفعل ذلك بعض ذوات العاصمة.

ويظلل شارع شبرا وقتئذ صفوف من شجر الجميز العتيق المرروع من عهد (محمد على باشا) هل فى شبرا الان صف واحد من الأشجار؟

صورة أخرى بين الأمس واليوم

عندما تحدث الكتاب عن أفراح الأنجال قال (كان كل جهاز من الجهازات الأربعة، يطاف به في أنحاء المدينة محملا على عربات تحت حراسة الجند الراكب، تتقدمها فرقة موسيقية إرسالها الى سراى العروس، وكانت الشوارع التى يمر بها مزدحمة بالجماهير الغفيرة وكذلك. كانت سرقات المنازل والفنادق غاصة بالمتفرجين.

بقى أن نعرف مقتنيات الجهاز الذى يمر بين (الجماهير الغفيرة) دون أن يلمسه أحد

يقول المؤلف (كان جهاز كل من عروس البرنسسين حسين وحسن. وكذلك جهاز البرنسيستين فاطمة هانم وأمينة هانم. منسقا فى ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالى لعرضه على الأنظار. وهو يتكون من أنواع الحلى المختلفة الأشكال المرصعة بالجواهر والماس. هذا عدا الأوانى الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بأطرافها الذهبية المحلاة بالجواهر وأقمام السبوكات التى من الكهرمان المطوق بالذهب المحلى بالجواهر.

وكما تعرض هذه الجواهر على البسطاء فى الطريق نعرض على رواد القصر العالى ترى أين ذهب هذا كله؟ لقد رأيت قصر مجوهرات محمد على فى الاسكندرية واستطيع ان أقول ان ما فيه بالنسبة الى هذا عينات

مع اعتبار أن اسرة محمد على ليست الأنجال الأربعة فقط.

كان المجتمع منذ قرن واحد يعمره الخير ومن أمثلة هذا فى الكتاب بادرات منها:

(كان المتبع فى طبقات الأغنياء، عند ختان أبنائهم أن يأخذوا ابناء أصدقائهم لإجراء عملية الختان لهم فى منازلهم، ويبقون بها حتى يتم شفاؤهم.. وبعضهم كان يدعو الى منزله فى هذه المناسبة ابناء الفقراء فتعمل لهم العملية، ويقدم لهم الطعام المناسب وبمناسبة أفراح الأنجال التى تحدثت عنها منذ قليل، يقول الكتاب ان (اسماعيل) (دعا تلاميذ جميع المدارس وطلبتها للاشتراك فيها بتناول الطعام، ومشاهدة الألعاب، وسماع الأغانى)

والخديوى توفيق له فى الكتاب صورة جالسا القرفصاء امام قراونة يذوق الطعام قبل ان يقدم الى الطلبة حتى يطمئن على جودته!

ومن طرائف أفـراح الأنجال أن الممـثلين بين الفصـول كانوا (يخـرجون لتناول المرطبـات فى محل مخصوص معصوبى الأعين، ويقودهم الأغوات الى المقصف الموجود داخل الحريم ويفعلون مثل ذلك عند عودتهم لاستئناف التمثيل.

ومن طرائف أفراح الأنجـال، زفة العروس وزفـة العريس فى كل وسط حـبيبـة ولكن عروس الأمير (كان يصطف الأغوات صفين. وبيد كل واحد «فنيار» ذو شمعات تعطى ضوءا كبيرا، وبين هذين الصفيـن تسير العروس فى أبهى حلل العـرس مسدولا على وجههـا الدواك الذهبى الرفيع، وتكون العروس محلاة بأكثر ما يمكن أن تحتمله من الحلى والجواهر الكريمة، ويسندها فى مشيتها اثنان من الأغوات، ثم تبدو عندئذ البدره الفضية التي تحملها احدى (القلفوات) فى كيس كبير.

وعندمـا تصل العروس الى غـرفة العرش «الـكوشة» تجلس على مـقعـد عال بين أمهـا وبين الوالده (باشا)

ويكثر التزاحم علـى الدخول لمشاهدة العروس فى حليهـا الجميلة بسهولـة وهناك تنثر البدرة الذهبية وبدلة العروس مرصعة من الرأس الى القدم بالماس مرة أخرى أقول اين هذا كله؟ أى ريح ذهبت بهذا كله؟ حين زرت متحف اللوفر بباريس رأيت جناحـا ضخما يضم نفائس ملوك فرنسا واباطرتها.. وعندما زرت قصر المـلك بمدريد وهى التى قامت بها ثورة أهلية- رأيت كل شىء فى مكانه.. وأغرب من هذا انى عندمـا زرت قصر توب كابى باسـتامبول رأيت كنوز السـلاطين كما هى بل رأيت طبقا ضخمـا من الكريستال قطره نحو ٧٠ سم وعمقـه او ارتفاعه نحو ٤٠ سم مملوء بأحجار الزبرجد المفرده وكان من السهل الاختطاف والاغتراف اى رز، حل بمصر!!

إنى لا أحب المتنبى مع فحـولته شاعرا، لأنه اساء الـيها حين أحنقه كـافور، ولكنى مع هذا لا أجد أصدق من بينه فى وصف هذه الحال:

ناست نواطير مصر عن ثعالبها.. فقد بشمن وما تفنى العناقيد

نترك أفراح الأنجال ونأتى الى الزواج بعامـة وهو فى ذلك العصر لا يخلو من الطرائف. يقول المؤلف: (كانت رسـومه تتم خفيـة عن الزوجين، فلا يعلمان عنهـا شيئا، وكـانت الأسرة هى التى تتولى أمر الخطبة، أو ينيـبون عنهم الخاطبة دون ان يكون للخطيبين نفسهـما أية ارادة. بل لقد كان

الغلو فى ذلك يصل الى حد ان بعض أفراد اسرة الخطيب نفسها لا تعرف شيئا عن خطيبة ابنها الا ما ترويه (الخاطبة) وقد حدث لى ذلك مع أسرة شريفة، فبعد أن انتخبتنى هذه الأسرة لأكون زوجا لابنتها، عدل عن ذلك لمجرد رغبة والدتى فى رؤية الفتاة المخطوبة!!

واذا كان تدفق الخير، واردا فى الأفراح لانبساط النفس فتنبسط الكف ثم طبيعة الفرح نفسه وهو يردهى الإنسان، فإن العجيب ان يروى المؤلف (كان نظام الجنازة بالنسبة للأسر الفنية أن يتقدم الموكب و «الضحايا» من الجاموس او البقر ثم «الكفاره» وهى جمل يحمل صندوقين «صحارتين» مملوءتين بالخبز، وقد اقتعد غارب الجمل رجل يوزع طول الطريق مما عبئت الصناديق من الخبز، كما يتبعه جمل اخر على نفس الصورة لتوزيع التمر الجاف والفاكهة ثم طائفة من عسكر البوليس ركبانا او مشاة ثم أرباب الطرق المختلفة المولوية، وقراء دلائل الخيرات وبعد الانتهاء من وصف الموكب الجنائزى يقول (وتنحر الذبائح عند باب القبر عند وصول النعش وتوزع لحومها على الفقراء).

اذن هو الاحسان والعطاء يلزم ويلازم الافراح والاتراح سواء بسواء حتى الموت لا ينسى المرزوئين، الخير.

## الثورة العرابية

سبقتها ثورة فكرية انفجرت وفجرت مشاعر النفوس ضد الديون وضد تدخل الأجانب.. ودخل الحلبة ادباء وخطباء ومن وراء هؤلاء جريدة «الطائف» حيث كان يكتب عبدالله النديم وجريدة «المفيد» حيث يكتب حسن افندى الشمسى.

(وانقلبت مصر مسرحا للخطباء فى كل مجتمع وناد حتى فى المساجد، ولم يبق مجلس للسمر او للاحتفال بعرس أو غيره الا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد اقصائهم عنها وغيرهم حتى لقد سمعت ان محمد عثمان المغنى الشهير كان اذا سئل فى اى فرح تغنى الليلة؟ «أجاب» فى الفرح الفلانى مع عبدالله النديم)

واشتغلت مصر بالثورة العرابية وعاشت فى حماس جارف.. كانت الثورة حلم مصر التقليدى بالمخلص بل تجاوز تأثير الثورة والثوار حدود مصر الى خارجها فى كل قطر. يقول

المؤلف (شغلت الثورة العرابية اذهان الشرقيين قاطبة ولاسيما الشعب الهندى، حتى علمنا ان السفارة الانجليزية فى الأستانة، ابتاعت من صاحب جريدة (الجوانب) التى كانت تصدر يومئذ باللغة العربية، مليون نسخة من العدد الذى نشرت فيه ترجمة الارادة السلطانية، التى أعلن فيها عصيان عرابى، لكى توزعها فى الهند وتستعين بالأمر الذى تحدثه على اخماد التشيع للعرابيين، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر انجلترا بشر العواقب).

وهكذا اجتمع على عرابى الانجليز وديلسبس ورشوة الانجليز، البدو، ومنشورات الخديوى يقول المؤلف.

(ومما ساعد على نجاح الانجليز، ان الجناب الخديوى عين محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب مندوبا خديويا، وبمعيته بعض ياوران سموه لدى الجنرال ولسلى، وناط به نشر الدعوة، وخصوصا بين العرب، لمساعدة الجيش الانجليزى الذى يحارب العرابيين باسم الخديوى. اضف الى ذلك الهبات المالية التى كان الانجليز يغدقونها على العربان. وخصوصا الذين قيدوا منهم بقلم الاستعلامات الانجليزى).

وتوالت الأحداث سراعا ودفعنا الدم والأيام وعلى ارض التل الكبير وحده بل على امتداد سبعين عاما تساقط فيها الشهداء شهيدا وراء شهيد وما أجل المفدى والمفتدى.

وان المرء ليقف حائر امام شخصية توفيق.. ان صورته فى هذا الكتاب تختلف اختلافا كبيرا بين البداية والنهاية كانت بدايته واعدة. سأله مراسل التيمس عن الخطة التى ينوى اتباعها فى مصر فقال له فى وضوح وحسم انه لا يرغب فى عودة النظار الأجانب وانه معتزم السير فى الاصلاح بأمانة واخلاص وفى جو خال من الدسائس وان اوربا يجب عليها ان تعطى مصر الوقت الكافى لبيان خبرتها وحسن ادارتها وان لا مانع مع ذلك من استخدام الاوربيين، كمرشدين لا مسيطرين، وكان مما قاله للمراسل فى شأن رجوع الناظرين الأجنبيين: ألا فلتقطع أسباب المخادعة والمناظرة والأنتقام.

وفى هذا الرد حكمة وكياسة وحسم ودلالة أخرى يستشفها التحليل من خطابة تكليف رياض باشا بتشكيل الوزارة (النظارة) لم اقصد بترأسى مجلس النظار ان اعيد (السطوة الشخطية.. وإنما راعيت فى ذلك ضرورة الحال. وملت مع الرغبة فى تقريب علاقاتى بأعضاء

النظارة فلم يكن فى خاطرى عزم نهائى، خصوصا فيما يغاير المبدأ الذى اتخذته يوم ولايتى وهو أن أحكم مع مجلس النظار، وبمجلس النظار).

وهو منحى عاقل رشيد.

فى بدايته استهل بزيارة الفيوم فدعاه أهل الصعيد فلبى الدعوة وزار اقاليم الصعيد اقليما اقليما وفى كل اقليم كان يؤدى الصلوات مع الناس ويوزع الصدقات ويزور البيوتات الكبيرة وكبار رجال المدينة ومدير المدينة فى بيته فى بساطة وتواضع. هل هذا الذى قال لعرابى فيما بعد «انتم عبيد احساناتنا»!!

كان يدعو فى زياراته مستقبليه الى موائده. كان يطوف المدينة راكبا جواده بلا استحكامات.. بلا مدرعات بلا شل مرور يسير والطيبون من أهلنا فى المدن يحيطونه بمشاعرهم وليس بمستغرب فقد أحاطوا اسماعيل على الرغم من الديون وما نجم عنها فى طريقه الى المحطة بعد خلعه من العرش. إنها مصر النبيلة.

كان توفيق فى بدايته يبنى المساجد على نفقته الخاصة. ويشجع التعليم الى الحد الذى يشهد الامتحانات ويمنح الجوائز كان ينشىء المدارس ويدفع نفقات تعليم بعض التلاميذ.

حدد توفيق احساسا منه بضائقة البلد، المخصصات الخديوية ثم اختزلها وضغطها. يقول المؤلف (كان اول عمل افتتح به عهده تنظيم مخصصات الأسرة الخديوية. اذ كانت مرتبات افرادها فى عهد اسماعيل غير محدودة ولا معلومة حيث كانت الخزانة تحت تصرفه، يأخذ منها ما شاء ويهب منها لمن شاء.. فرأى الخديوى توفيق ان يحدد هذه المرتبات وأخذ مجلس النظار بناء على هذا الرأى يعين هذه الرواتب ثم عاد توفيق وتنازل عن ٢٠,٠٠٠ عشرين ألف جنيه من مرتبه لاضافتها الى مرتب والده ثم أمر بإلغاء المرتب الخاص بوالدته وحرمه فاقتصد بذلك خمسة وخمسين ألفا).

وهنا يتجسد عنصر المشاركة وعنصر القدوة الحقيقية.

هذا حين قرر زيادة الميزانية المخصصة للتعليم الى الضعف. وصدرت لائحة بتنظيم أعمال الرى وتوسيع نطاقها وروجعت القوانين المصرية.. ولكنه استسلم لدسائس القصر ووشايات ممثلى

الدول الأجنبية الذين كانوا يخشون الوطنيين وحركتهم الفكرية ولم يفطن الى أن هؤلاء المتفعين، أصحاب غرض ومصالح شخصية.. لقد آفاق أخيرا ولكن كان الوقت متأخرا.

يحكى المؤلف أنه بعد موقعة التل الكبير المشئومة سعى اليه المتزلفون والأجانب لتهنئته ولكن توفيق بكى. يقول المؤلف (أما توفيق فعلى الرغم من أنه كان يعلم ان انكسار العرابيين يؤول الى توطيد عرشه، فقد عز عليه ان يتم له ذلك على يد الأجانب وعلى حساب بلاده ومذلة شعبه. وقد كان سموه من الأمراء الذين نصبوا نفوسهم الى عروش وطيدة الأركان، ولكن مدعمة بحب الرعية وولائها وليس الى عروش واهية قائمة على رءوس الأسنة وشفا السيوف واذا كان الارتياح الذى بدأ على محياه بانهزام العرابيين مشوبا بالحزن وكانت الدموع التى تساقطت من عينيه ساعة وزود النبأ معبره عن شعوره أصدق تعبير)

لقد خانه التوفيق كما خان عرابى كان باستطاعتهما ان يتلاقيا في طريق الاصلاح واقالة عثرة البلد وفى حياته لهما حياة وكرامة..

ثم ذهب توفيق وعرابى بعد أن تجرعا غصصا شتى ولكن مصر فى النهاية هى التى دفعت الثمن.. مصر التى لم تبرأ جراحها الا بعد سبعين عاما.

ولكنها فى النهاية هى الباقية.